

“الصحيفة الصادقة” أقدم كتاب في الحديث النبوي

الصحيفة الصادقة هي أول كتاب وأقدم التراث الإسلامي في علم الحديث للصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وهي ترمز إلى طريقة تقييد الحديث وتدوينه في حياة النبي ﷺ. ذلك أن رواية الحديث النبوي الشريف أخذت تقيدها ثلاث مراحل: 1- مرحلة الكتابة، وهي مرحلة الكتابة الفردية المبتدأة من عهد النبي عليه الصلاة والسلام. 2 - ثم تليها مرحلة التدوين والتجميع، وهي مرحلة التدوين الرسمي من قبل الدولة الأموية 3 - ثم جاءت مرحلة التصنيف والترتيب والتبويب في عصر الدولة العباسية، وهي مرحلة الكمال في جمع الأحاديث وتصنيفها على الأبواب الفقهية والمسانيد والجوامع والمصنفات وغيرها. كانت **رواية الحديث في حياة النبي ﷺ تكتب في صورة الصحف** بإذنه، وأحياناً بأمره، حتى كتبت عدة من الصحف المحتوية على أحكام كثيرة، كصحيفة الأمير المؤمنين علي بن أبي طالب التي فيها حد حرم المدينة والعقل وفكاك الأسير وغيرها، وكتاب عمرو بن حزم الأنصاري الذي فيه أحكام الصدقات والطهارة والصلاة وغيرها، والوثيقة التي أمر النبي ﷺ بكتابتها في أول وصوله المدينة بين فيها حقوق المسلمين واليهود. وتأتي هذه الصحف أحياناً في صورة رسائل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الملوك والعظماء يدعوهم فيها إلى الإسلام.

الصحيفة الصادقة للصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص

إن “الصحيفة الصادقة” التي كتبها عبد الله بن عمرو بن العاص كانت ضمن الصحف المكتوبة في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، حيث كان عبد الله أكثر الصحابة كتابة لحديث النبي ﷺ وبإذنه عليه الصلاة والسلام. وقد روى الإمام أحمد وغيره عنه رضي الله عنه أنه قال: “كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله ﷺ وأريد حفظه، فنهتني قريش عن ذلك، قالوا: تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يتكلم في الرضا والغضب، قال: فأمسكت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأشار بيده إلى فيه، فقال: “اكتب فوالذي نفسي بيده: ما يخرج منه إلا حق. [1] واستمر ابن عمرو في الكتابة بعد الإجازة النبوية وتوسع فيها حتى قال أبو هريرة -حافظ الصحابة- رضي الله عنه «ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، أكثر حديثاً عن النبي ﷺ مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب» [2] وكانت حصيلة كتابة عبد الله بن عمرو: “الصحيفة الصادقة”، وهي جديرة بسم “الصادقة” لأنها من أصدق وأثبت وأشهر ما كتب في عهد النبي ﷺ.

عناية عبد الله بن عمرو بالصحيفة الصادقة

كان حرص عبد الله على صحيفته حرص الضنين، وقد قام بحفظها وصونها من أن ينالها شيء من الخلل والتغيير أو شيء من التلف، وكان يعتز بها جداً ويقول: “ما يرغبني في الحياة إلا خصلتان: الصادقة والوُهْظَةُ، فأما الصادقة فصحيفة كتبها عن رسول الله ﷺ” [3] وقد خصص لهذه الصحيفة صندوقاً محكماً يحتفظ به عنده، وإذا أراد أن يحدث أحياناً أو يتأكد عن شيء فإنه يرجع إليها ويروي منها. يقول أبو قبيل المعافري: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- وسئل: أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ قال: فدعا عبد الله بن عمرو بصندوق له حَلَق، قال: فأخرج منه كتاباً فجعل يقرؤه، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولاً: قسطنطينية أو رومية؟ فقال النبي ﷺ: “بل مدينة هرقل أولاً تفتح” [4] وكان من حرصه على الصحيفة أنه لا يكاد يسمح لأحد الاقتراب منها ولو كان من أخص طلابه كأمثال مجاهد بن جبر المكي الذي قال: “أتيت عبد الله بن عمرو فتناولت صحيفة من تحت مفرشه، فمنعني، قلت: ما كنت تمنعني شيئاً، قال: هذه الصادقة، هذه ما سمعت من رسول الله



عليه السلام ليس بيني وبينه أحد” [5] **سند الصحيفة الصادقة عند المحدثين** قد سمع من عبد الله بن عمرو خلق كثير من أئمة التابعين، وحدثهم من **الحفظ ومن الصحيفة** معا، فيغلب على الظن أن كلا من شُقَى بن مائع الأصبحي التابعي وأبي عبد الرحمن الحُبلي وأبي راشد الحمزاني وغيرهم قد نقلوا نسخ من الصحيفة كما يظهر ذلك من سيرهم، ومثلا قول أبي راشد الحمزاني: ”أتيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ...” [6] وقال أبو عبد الرحمن الحُبلي - لما طلبوا من ابن عمرو أن يحدثهم -: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاساً... الخ [7] وغير ذلك من النقول المشيرة إلى أن الناس من شق الأمصار قد رووا الصحيفة عن عبد الله بن عمرو وإن كانوا لم يسموها باسمها، إلا أن مشهور السند في كتب الحديث إلى الصحيفة هو السند المعروف برواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. والمقصود بالجد في هذا السند “عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده” هو جد الأب، وهو الجد الأعلى “عبد الله بن عمرو **الصحابي**” كاتب الصحيفة، والجد الأدنى هو محمد بن عبد الله بن عمرو، فلذا رجح كثير من النقاد أن رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من قبيل الوجدادة لا من قبيل اتصال السند، وإن كانت الوجدادة من وجوه التحمل، ومن هنا جاء الطعن في هذه السلسلة من بعض أهل العلم، إلا أن الأكثر يرون الاحتجاج بها. يقول الشيخ تقي الدين **ابن تيمية**: “وكان عند آل عبد الله بن عمرو بن العاص نسخة كتبها عن النبي ﷺ وبهذا طعن بعض الناس في حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه شعيب، عن جده، وقالوا: هي نسخة، وشعيب هو شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، وقالوا: عن جدّه الأدنى محمد، فهو مرسل، فإنه لم يدرك النبي ﷺ، وإن عني جده الأعلى فهو منقطع، فإن شعيباً لم يدركه. وأما أئمة الإسلام وجمهور العلماء فيحتجون بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده إذا صح النقل إليه، مثل **مالك بن أنس** وسفيان بن عيينة ونحوهما، ومثل الشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم قالوا: الجد هو عبد الله، فإنه يجيء مسمى، ومحمد أدركه. [8] ويؤيد هذا التقرير قول الإمام الترمذي في الجامع: ”وأما أكثر أهل الحديث فيحتجون بحديث عمرو بن شعيب ويثبتونه، منهم أحمد وإسحاق وغيرهما” [9] وعليه يبقى سند الصحيفة بهذه السلسلة معتبرا ومقبولا إذا صحت الرواية إلى عمرو بن شعيب، وإن كان ينحط سند الصحيفة عن درجة الصحة إلى درجة الحسن بسبب الخلاف القائم في شأنه، بل من عادة علماء المصطلح جعل هذه السلسلة الإسنادية في أعلى مراتب الحديث الحسن.

مكانة الصحيفة بين كتب الحديث

لم يكن حجم هذه الصحيفة الصادقة حجما صغيرا وإن سمي بالصحيفة، ولذا جاء على لسان بعض الحفاظ - كابن معين - تسميتها بالكتاب نظرا لمحتوياته الحديثية الضخمة، “فقد وقف ابن حبان على نسخة منها ورواها عن شيخه أبي يعلى الموصلي وقال: في نسخة كتبناها عنه طويلة” [10] وروى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «حفظت عن النبي ﷺ ألف مثل» وهذا الذي جعل ابن الأثير أن يجنح إلى القول بأن عبد الله بن عمرو حفظ عن النبي ﷺ ألف مثل [11]. ولكن إحصاء أحاديث الصحيفة في الواقع حسبما وصلنا لم يناهز هذا العدد مما يعني أنه ليس كل ما في حفظ عبد الله مودع في الكتاب إن صح ذلك الخبر عنه، هذا، وقد قام السيد محمد سيف الدين عليش ومحمد بن علي بن الصديق بإحصاء عدد أحاديث الصحيفة في بطون أمهات الكتب السنة على تفاوت يسير في الإحصاء، فكانت محصلة ذلك في الآتية:

- مسند أحمد: 202 حديثاً من أصل 632 حديثاً.

- سنن أبي داود: 81 حديثاً من أصل 232 حديثاً.

- سنن النسائي: 53 حديثاً من أصل 128 حديثاً.

- سنن ابن ماجه: 65 حديثاً من أصل 117 حديثاً.



- جامع الترمذي: 35 حديثًا من أصل 89 حديثًا. [12]

- مصنف عبد الرزاق: 69 حديثًا

- مصنف ابن أبي شيبة: 122 حديثًا

- سنن الدارقطني: 127 حديثًا

- المستدرک للحاکم: 90 حديثًا

- المحلى لابن حزم: 115 حديثًا [13]

وثمة كتب أخرى ضمنت أحاديث الصحيفة كما يفهم ذلك من كلام ابن حبان سابقا، فيتبين مما سلف مدى أهمية ومكانة الصحيفة الصادقة بين كتب الحديث المدونة ومدى الوثوق بها والاحتجاج بأحاديثها حتى ذكر الذهبي عن بعض العلماء قوله: ينبغي أن تكون تلك الصحيفة أصح من كل شيء؛ لأنها مما كتبه عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ والكتابة أضبط من حفظ الرجال” [14] وكفى هذا السجل الحديثي التاريخي الصريح بالحجة – من الحجج الكثيرة الواضحة- لإثبات وجود كتابة السنة النبوية منذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن هذا الحق لا يقبل الشك أو الاختلاف أو المكابرة.